

الدعوة إلى الله وتوحيده ومسؤولية العلماء فيها

مما لا يخفى على أحد منا أننا في عهد من عهود البلايا والفتن، فنشاهد يوماً بعد يوم أن أعداء الإسلام يغلبون بلداً بعد بلد ويشن الصليبيون حرباً بعد حرب على أهل الإسلام وعلى شعاره. ونشاهد أن الكفر والشرك كاد أن يسحق رموز ديننا بقتل الدعاة والهادة والمجاهدين وحاملي لواء الدين. فالمسلمون اليوم مخدولون قانطون فاشلون في كل مكان.

فكل ذي بصيرة في هذا الزمان يعلم بل يشهد ما تنشر في هذا العصر من الشرور العظيمة، في الإذاعات والصحافة، والتلفاز وفي النشرات الأخرى. وفي المؤلفات الداعية إلى النار حتى ظهر الفساد في البر والبحر، وخضع علم الإسلام، ووجد الإنكار والمعارضة ضد شعار الدين حتى من أبناء المسلمين. فهم يتأثرون بوسائل الإعلام، وبما يُدرسون في مدرستهم الرسمية من العلوم العلمانية واللا دينية، حتى ضُغف إيمانهم واندرس حبهم لله ولرسوله. فالآن هم في شك يتيهون وبلبله يزيغون، ولا يهتدون.

وهناك جيوش متنوعة تقوم بإذاعة السم ضد الإسلام، والدعاء إلى طرق النار، وتتوفر لهم الوسائل المتطورة والعدد والعدد لنيل هذا الهدف القبيح. هذه الجيوش يسوقها أعداء الإسلام إلى المسلمين، وهذه الوسائل الخطيرة المتنوعة الكثيرة، كلها يسوقها وينشرها أعداء الإسلام إلى المسلمين، وإلى غير المسلمين، لإهلاكهم وقيادتهم إلى النار. ولأن يكونوا معهم في أخلاقهم الخبيثة، وسيرتهم الذميمة، وأن يكونوا معهم في النار، لأن قائدهم يريد هذا كما قال الله سبحانه: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ. (القرآن: 35:6)

فتعظم مسؤولية أهل العلم النبوي من المسلمين وتترايد وظيفتهم لمقاومة هذا الشر السائد والزَّيغ المتزايد. فإنهم راغون على أمة الإسلام، وهم مسؤولون يوم القيامة عن رعيته.

فلا يليق بالعالم أن ينزوي ويقول: حسبني نفسي. لا، فإن عليه واجبات. حسبه نفسه من جهة عمله أن يعمل. وعليه واجبات من جهة البلاغ والبيان والدعوة. فربنا يقول سبحانه: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. فالحمد لله سبحانه يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة. وأمره له أمر لنا جميعاً، ليس المقصود له وحده عليه الصلاة والسلام. فإذا وُجِّه له الأمر فليس له وحده بل هو له ولنا ولأهل العلم جميعاً إلا ما خصه الدليل به. (فتاوى ابن باز 7/196)

عليهم أن يذكروا في هذه الأيام الشداد أسوة سيدنا يوسف عليه السلام. فقد وجد المجتمع كله مستعداً لإضراره، وما وجد أحداً يواسيه، حتى وجد نفسه مع براءته في السجن، بعيداً عن أقربائه. فماذا نجده يفعل في هذا الحال العصيب والوضع العسير؟ هل قِطْ وأيس؟ لا!

"يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ". هذا كلامه، وهذا نداؤه، وهذا دعاؤه. كلام المؤمن الصابر، والنبى المثابر، يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلى كل حال، عليه أن يدعو عباد الله إلى الله وحده في كل طور ومكان وفي كل وضع وزمان.

ولما كان طلاب علوم الدين وعلماءه وارثي النبيين، بل وارث إمامهم وسيدهم وأولهم وآخرهم، فعليهم أن يتأسوا بأسوتهم وأن يهتدوا بهديهم ولا سيما هُدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي نجده يدعو الناس إلى الله وإلى توحيده في طائف ورجلاه تسيل دماً، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون! ونراه يسلي أصحابه المضطهدون الملهوفون الشاكون إليه اعتداء مشركي قريش حيث قال: كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ فَيَحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُؤْتِي بِالْمِنْشَارِ فَيَجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللَّهُ لَيُبَيِّنَ الرَّاكِبَ مَا بَيْنَ صَنْعَاءٍ وَحَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى وَالذَّنْبَ عَلَى غَمِّهِ (أبو داود: 2278). فإن الله قد وعد المؤمنين أنه سوف يستخلفهم في الأرض بشرط أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

فعلما أنه لا رخصة في الدعوة إلى الله وإن كانت عواصف الكفر الهوجاء تجري، وإن كان المؤمنون في غاية الضعف وقلة الحيلة. لأن الله قد اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة، ولأن المؤمنين قد قبلوا تجارة تُنجيهم من عذاب أليم، فعلى المؤمنين – وخاصة على علمائهم – أن يستقيموا على أسوة النبي صلى الله عليه وسلم مناديين بكل قوة قائلين جهاراً: تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرِباً مِنْ دُونِ اللَّهِ (3:64). فالأمر الهام والعنوان العام لهذه الدعوة هو التوحيد الخالص، فمن منكربه من يجحد التوحيد جهراً وبالكامل، ومن منكربه من قال الله سبحانه عنهم: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ.

فقدى العلماء مسألة مهمة ، وهي المسؤولية الملقاة على أصحاب العلم من جهة البلاغ والتعليم للناس ، فإن العلماء هم خلفاء الرسل ، وهم ورثتهم ، ولا يخفى مرتبة الرسل ، وأنهم هم القادة. وهم الهداة للأمة ، وهم أسباب سعادتها ونجاتها ، فالعلماء حلوا محلهم ، ونزلوا منزلتهم في البلاغ والتعليم؛ لأن الأنبياء خُتِموا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يبق إلا البيان والتبليغ لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، والدعوة إليها وبيانها ونشرها بين الناس ، وليس لذلك أهل إلا أهل العلم ، هم الذين أهّلهم الله لهذا الأمر ، فهم دعاة وقادة بأقوالهم وأفعالهم وسيرتهم الظاهرة والباطنة.

فواجبهم عظيم ، والخطر عليهم جسيم ، والأمة في ذمتهم؛ لأنها بأشد الحاجة إلى البلاغ والبيان بالطرق الممكنة. والطرق اليوم كثيرة : منها وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية. فلها آثارها العظيمة في إضلال الناس ، وفي هدايتهم. وهكذا الخطب في الجمع والأعياد والمناسبات والندوات، والاحتفالات لأي سبب، لها أثرها أيضا. والنشرات المستقلة والمؤلفات والرسائل لها أثرها العظيم. فعلى العلماء والطلاب أن يستخدموا كلا منها مما يتيسر لهم لنيل هذا الهدف السامي. ولتكن الدعوة إلى الله ونشر دينه وتبليغ توحيده رسالة حياتهم، حتى لا يبقى على الأرض بُيُوتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعَزَ عَزِيزٍ أَوْ بَذَلَ ذَلِيلٍ، عَزَا يُعَزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذَلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ. ندعو الله سبحانه أن يجعلنا ممن يعزّه ويرفعه في الدارين!